المحاضرة السابعة: ظاهرة الشعوبية في العصر العباسي(أسبابها أعلامها)

1- تعريفها:

الشعوبية: لفظة مشتقة من الشعب (الجيل) أوسع طبقات المجتمع تسلسلا وهي: الشعب، فالقبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة.

وهي حركة مضادة للعرب باتجاهاتها، ذات نعرة عنصرية طائفية وليدة الكره المتأصل في نفوس الفرس المجوس، ظهرت بوادرها أواخر العصر الأموي وبدايات العصر العباسي. واستقطبت من يرون ألا فضل للعرب على العجم. وصارت تكشف وجهها القبيح تدريجيا فوصلت إلى حد الانتقاص من العرب وتفضيل العجم.

والشعوبي في القاموس المحيط:"من احتقر أمر العرب"، ولدى القرطبي:"حركة تبغض العرب وتفضل العجم"، وعند الزمخشري:"من يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم». وتعرفها الموسوعة البريطانية:"اتجاه مناوئ للعروبة"، وأول من تطرق لها بكتب التراث البيان والتبيين للجاحظ.

سلكت الدعوة الشعوبية بدءا اتجاه التسوية تذرعا بأن العرب ليسوا أفضل من غيرهم، فالجميع في الإسلام سواء، أما الأخيار والأشرار فموجودون في كل الأمم، ويستشهدون بقوله تعالى:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شَعَوبَاً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" سورة الحجرات،الآية31، وبقول الرسول الكريم بخطبة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى».

ووحدة المسلمين قائمة على التناصر والتعارف لا التناكر والتمايز، ومن الصحابة الأجلاء: بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وهذا الاعتقاد من صلب عقيدة الإسلام، وعليه سار الخلفاء الراشدون ولا يحيد عنه المسلمون.

انتشرت الشعوبية بين الفرس المجوس لأنهم أول من دخل الإسلام من غير العرب بأعداد كبيرة، ثم تلاهم الهنود والأتراك ومستعربو الأندلس، فالفرس يرون حضارتهم سبقت العرب فتولد لديهم شعور قوي بالاستعلاء والكراهية، فكيف يسيطر العرب على بلادهم ويسقطوا دولتهم؟ انتشرت

الشعوبية بأطراف إيران، خرسان وأذربيجان لبعدها عن مركز الخلافة، وسعى الشعوبيون لهدم أصول العقيدة، فخاضوا في الإلوهية والتوحيد والبعث والحساب. وأشاعوا الزندقة بالعقائد المثنوية والزردشتية والمانوية والمزدكية. وفُسروا القرآن الكريم على غير وجوه معانية الربانية، وافتروا على ألسنة النبوية بأحاديث موضوعة وأسندوها إلى كبار الصحابة، ركز الشعوبيون هجومهم أولا على العرب قبل الإسلام، فهاجموا أسلوب حياتهم وفصاحتهم وأساليب قتالهم وأنسابهم وعلاقاتهم الاجتماعية وكرمهم ومروءتهم ومقاييسهم الخلقية، ولم يتعففوا عن ذكرهم بالسوء في ظل الإسلام ومن صمت تقية من سطوة السلطان.

2- نشأتها:

ظهرت الحركة الشعوبية أواخر العهد الأموي وظهرت بشكل واسع في العهد العباسي الأول. بعد معاصرتهم للدولة الأموية والعباسية اكتسب العديد منهم الخبرات والمعرفة بعملهم بالدولة الأموية والعباسية ومعاصرتهم للحضارة العربية.

ابتدأت الحركة الشعوبية بحركة الغلاة والخرمية في أواخر العهد الاموي،والغلاة فرق كثيرة ترجع اصولها الى المزدكية والزرادشتية والمانوية وهي ديانات ايرانية قديمة استمرت ساكنة في الإسلام غير انها ظهرت فيما بعد وظهرة المانوية باسم الزندقة وظهرت المزدكية في شكل الخرمية وتم تبني هذه الحركات مجموعة من الكتاب الذين اهتموا بتأليف الكتب والترجمة عن الفرس واستخدموا الشعر لتحقيق أغراضهم.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد نشأة هذه الحركة، فأرجع بعضهم مقتل الخليفة الفاروق إليها ،ولم يُتفق على هذا ولكن الثابت أنها نهشت في جسد الخلافة العباسية .. وخاصة عندما احتدم الخلاف بين الأمين والمأمون .. كما يُعزي البعض إنشاء الفرق الباطنية : كالمعتزلة إلى الشعوبيين،و يقول بعضهم :إن الحركة الصفوية قد تبنت التيار الشعوبي ، وحاولت أن تصبغه بنكهة دينية وشيعية بالتحديد.

3- سبب تسميتها:

وقد اختلف في السبب الذي من أجله سمي هؤلاء بالشعوبية. فلقد ذهب قسم من الكتاب إلى إنهم سموا بذلك لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، ولقد أطلقت كلمة الشعوبية في الكتب

القديمة على كلتي النـزعتين المتميزتين في هذه الحركة فمرة تطلق على الحركة التي تميل إلى المساواة بين الأمم ولا ترى للعرب فضلاً على غيرهم. ومرة أخرى تطلق أيضا على النـزعة الثانية التي تذهب إلى حط شأن العرب ونقدهم وأن العرب أحقر من غيرهم من الأمم.

ويرجح الأستاذ أحمد أمين في كتابه"ضحى الإسلام" أن اسم الشعوبية لم يستعمل إلا في العصر العباسي الأول لأن الأمويين قد صدوا هذه النزعة بقوة وجبروت وهذا يبين لنا ان هذه النـزعة التي تحاول مسواة العرب او تحقيرهم لم تتخذ شكلاً قوياً واضحاً يصح ان يطلق على معتنقيه اسماً في هذا العصر بسبب موقف الأموين منها، ولعلها جنحت إلي السرية وعدم الظهور .

4- أعلام الشعر الشعوبي:

أ- بشار بن برد:

هو بشار بن برد بن يرجوخ، كنيته أبو معاذ، لقبه المرعث، أبوه مولى امرأة عقيلية، حرفة أبيه طيان. فبشار عربي عجمي، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كثير التبرم بالناس لعماه، متلون في ولائه، يكره العرب ويحث الشعوب على كرههم، ويتعصب لهم أحيانًا ويتشيع للعلويين. كان الناس يزدرونه حتى يخرج عن طوره، ولولا خوفهم لسانه ما انفكوا عنه. توفي سنة168هـ.

قال الجاحظ: كان بشار يدين بالرجعة، ويكفِّر الأمة، ويقدِّم النار على الطين، حيث قال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة...والنار معبودة مذ كانت النار

و كذلك فضَّل بشار بن برد الفارسي الشعوبي ـ في قصيدة أخرى ـ إبليس على آدم في قوله:

إبليس خير من أبيكم آدم ..... .فتنبهوا يا معشر الأشرار

إبليس من نار وآدم طينة.....و الأرض لا تسموا سمو النار

ب- أبو نواس:

هو الحسن بن هانئ، تلميذ والبة الحباب"ت 199هـ".

كان يحب الخمرة إلى درجة التقديس ،فلم يصفها وصفًا فقط سبَقَ فيه مَن تقدَّمه، بل قدسها تقديسًا:

اثن على الخمر بآلائها...وسمها أحسن أسمائها

كان من شعراء الشعوبية، ومن الأدلة في ذلك قوله في كره العرب والاستهزاء بعاداتهم وتقاليدهم ، وبالخصوص وقوف شعرائهم على الأطلال، فاسمع ما يقول:

عاج الشقي على رسم يسائله... وعـجت أسأل عن خمَّـارة البلـــد

يبكي على طلل الماضين من أسد .. لا درَّ درك قل لي من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ولفهما... ليس الأعاريب عنـــد الله من أحـــد

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

ويقول في قصيدة أخرى ساخرا من الأعراب :

دَعِ الأَطلالَ تَسفيها الجَنوبُ...وَتُبلي عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ

وَخَلِّ لِراكِبِ الوَجناءِ أَرضاً...تَخُبُّ بِها النَجيبَةُ وَالنَجيبُ

بِلادٌ نَبتُها عُشَرٌ وَطَلَحٌ... وَأَكثَرُ صَيدِها ضَبعٌ وَذيـــــبُ

ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ... ولا عيشا فعيشتهم جديب

فهذا العيش لا خيم البوادي ... وهذا العيش لا اللبن الحليب

فأين البدو من ايوان كسرى ... وأين من الميادين الزروب

بلاد نبتها عشر وطلح ... وأكثر صيدها ضـــــبع وذيب

وقال للأعراب الذين يبكون على الأطلال واقفين

قل للذي يبكي على طلل درس ... واقفا ما ضر لو كان جلس

وكان خليعًا متهتكًا لا يبالي بحدود الأدب والدين ولا يراعي شيئًا من هذا، قال:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر...ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر

فعيش الفتى في سكرة إثر سكرة...فإن طال هذا عنده قصر الدهر

فبُحْ باسم من أهوى ودعني من الكنى...فلا خير في اللذات من دونها ستر

ولا خير في فتك بدون مجانة...ولا في مجون ليس يتبعه كفر

للاطلاع والاستزادة ينظر:

1-أحمد أمين :ضحى الإسلام

2- كريم سالم محمد: الشعوبية نشأتها وتطورها

3- حسين عطوان:الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول

4- سعيد عبد اللطيف ونزار عبد اللطيف:الشعوبية نشأتها وتطورها

5- عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية

6- أحمد فرج الله :الزندقة والشعوبية

أحمد الحسين:شعراء النزعة الشعبية